

القسم الخامس

الحكم الاسلامى ايام الدولة الفاطمية

عصر الولاة والارهاب

الحسن بن احمد بن ابي خنزير

لا بدع ان احدث انهيار الدولة الاغلبية ، وقيام الدولة الفاطمية ، اثرا عظيما في البلاد الصقلية . على ان اواخر ايام الاغلبة لم تكن في صقلية ايام راحة وهدوء واطمئنان ، فكانت حوادث افريقيا ضعفا على ابالة ، وكانت السنوات الاولى من انتصاب الحكم الفاطمى بالجزيرة ، ايام اضطراب سوداء ومذابح شنيعة ؛ ان اسفرت عن شيء فمن خلاف جسيم وشقاق ذريع بين الجموع العربية التى كانت قوام دولة الاغلبة ، وبين الجموع البربرية التى ترى انها صاحبة الدولة ايام الفاطميين ، فقضت الجزيرة من جراء ذلك عصرا من اسوأ عصورها .

الا ان ذلك لم يدم طويلا ؛ وعاد الاستقرار بعد حين ، على يد بعض كرام الولاة فى اول الامر ؛ وعلى يد عائلة بنى الحسن اخيرا .

عندما توطدت اقدام عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧ فى ملك افريقيا ، ارسل من قبله واليا على صقلية ، الحسن بن احمد بن ابي خنزير ، من زعماء البربر الذين ايدوا الشيعة الفاطمية ونصروها فدخل بالرمة دخول الفاتح المنتصر ، ولم يسر هنالك سيرة امير مسلم ، بل سار هنالك سيرة امير بربري ؛ فكانت اعماله كلها متجهة نحو بربرة البلاد ، وتوطيد دعائم الذعرة العنصرية البربرية ، فسكت العرب اول الامر عن مضض ؛ وقد شعروا انهم قد خسروا بانهيار الدولة الاغلبية تفوقهم ونفوذهم

وشعر المسلمون الصادقون ، وكثير عددهم ، بان هذه النعرة الجديدة سوف تكون نواة الخراب والدمار اذ تحمل الدسائس العنصرية والخلافات المذهبية محل الاخوة الاسلامية السالفة .

ولم يكتف الحسن بن احمد بمحاولة تغليب العنصر البربري على العنصر العربي بل زاد الطين بلة بمحاولة حمل الناس عامة على اعتناق المذهب الشيعي بدل الاكتفاء منهم بالطاعة السياسية تاركا لهم حرية الدين .
وما كانت هذه الاعمال لتنتهى الا بالانتفاض وازاقة الدماء .

ثار العرب وثار معهم اهل السنة عامة فخلعوا طاعة الحسن بن ابي خنزير ، لكنهم لم يستطيعوا اعلان ما تمكنه نفوسهم اذ ذاك ، ولم يجدوا القوة الكافية والزعامة الحقيقية للتخلص من السلطة الفاطمية ؛ فراسلوا المهدي معتذرين عن ثورتهم بسوء سيرة الوالي وفساد اعماله ، وافن رايه ، وما تسبب فيه من فتن هوجاء بين المسلمين .

على بن عمر البلوي

تقبل المهدي على كره منه اعتذار مسلمي صقلية ، فاعلن عزل الحسن ، واولى مكانه علي بن اعر ، سنة ٢٩٩ ، وكان شيخاً هرمًا ، لين العريكة ، كريم الاخلاق أراد ان ياخذ الناس بالحسنى ، وان يقابل الفتن باسداء النصائح ، وكانت القبائل البربرية التي قدمت البلاد والتي استقرت فيها من قبل ، قد التفت حول الحسن وعلي ابني الوالي المعزول الحسن بن ابي خنزير ، فاصبح لهذين الولدين النفوذ المطلق والسلطة الحقيقية ، وسارا تحت ساططة الوالي الواهية ، على تنفيذ خطط ايتهما .

هنالك لم يجد العرب واهل السنة عامة مخرجاً لهم من تلك المحنة الا اعلان الثورة ، بل اعلان الانقلاب والانتفاض على سلطة الفاطميين .

احمد ابن زيادة الله بن قهره

جمعوا امرهم يومئذ وقاموا بحركة منظمة وعلّموا انهم ما داموا على ولاء المهدي فالحالة لا يتطرق اليها ادنى تغيير . ففي السنة الواحدة لولاية علي بن عمر سنة ٣٠٠ رفعوا لواء العصيان وقبضوا على والي علي بن عمر وعلى ولدي بن ابي خنيزر واركبوها البحر الى افريقيا وبايعوا بالولاية احمد ابن زيادة الله بن قهره وهو من قرابة الاغالبه .

الخليفة العباسية — كان احمد بن قهره كارهاً للولاية حتى انه عندما رأى الناس اجمعوا على تقديمه فر من وجههم وآوى الى غار يحجبه عنهم فامنعوا في طلبه واخرجوه من مخبئه واقسموا له ليكونن في طاعته وليموتن دونه فقبل الامر اذ لم ير محيصاً عن ذلك ، انما اشترط عليهم ان لا يتولى الامر الا معتمداً على الخلافة العباسية نابذاً لدعوة الشيعة وما فيها من تعصب مذهبي وعنصري ؛ وهكذا كان فتوى الامارة معتزاً باهل السنة من عرب وبربر ، وراسل الخليفة المقتدر بالله في بغداد يعلن القيام بدعوته ويضع امارته تحت نفوذه ؛ وجاءته رسل الخليفة تحمل الالوية السوداء والخلم السود شعار الخلافة العباسية . ثم وقف ابن قهره وقفة الامير الحازم والزعيم القوي الشكيمة الجسور في الحق ؛ فضبط الامور واستقامت له الاعمال وسكنت الفتن الظاهرة الا ما كان كامناً منها تحت الرماد .

رجوع الفاطميين واندحارهم — ما كان عيد الله المهدي وما كانت قبائل كتامة ومن لف لفها ترضى بخروج صقلية عن الامر ؛ واصباحها مركزاً للدعاية العباسية العربية السنية ؛ وادركوا ما في ذلك من خطر جسيم على الدولة الناشئة فوقفوا للامر موقفاً حازماً ورأوا اطفاء هذه الجذوة قبل ان يستفحل امرها .

جهز المهدي اسطوله وعمره برجاله الاشداء ووضع على رأسهم ابن ابي خنيزر

بعد ان اعلن من جديد ولايته على صقلية ، وسار الاسطول فالتقى مراسيه في مدينة رمطة ، انما رجال ابن قرحب لم يكونوا غافلين فتلقوا ذلك الاسطول بما جمعه من مثل ذلك اليوم من قوة ، والتقى الجمعان سنة ٣٠١ ، وفاز اهل صقلية فوزاً ميبيناً فاحرقوا اسطول المهدي واسروا ستمائة من رجاله وحبسوا على الحسن بن ابي خنزير نفسه وكان قد آلم من قبل نفوسهم واحداث في قلوبهم ضعيفة لا تنسى ؛ فقتله ابن قرحب تشفياً وانتقاماً .

نذالة وسقوط — جهاز المهدي حملة جديدة سنة ٣٠٣ ؛ سيرها على صقلية

محاولة استرجاعها فباءت بفشل ذريع .

لكن المهدي ان لم ينصره اسطوله على صقلية فقد نصره فيها دعاة الهزيمة

اورجال الكتيبة الخامسة حسب التعبير الحديث .

فقد قاموا يومئذ بدعاية واسعة النطاق تمكنوا من اقناع خاصة الناس

وعامتهم بها اذ قالوا : ان المهدي لن يصبر عن اندحاره المتوالي في صقلية وانه لا

ريب راجع علينا باسطوله وخيله ورجله مما لا قبل لنا به ؛ فالراي الاسد هو اعلان

التوبة والندم والرجوع لحكمه وخلع طاعة بني العباس الذين لم نر منهم الا شعارهم

الاسود ؛ ولا يستطيعون امدادنا بشيء .

وحصل الامر لعلم ابن قرحب فجمعهم وذكركم بما قطعوه له من عهود ومواثيق

فما اغنى ذلك عنه شيئاً وتصلبوا في مرادهم فاستسلم امام ارادتهم واخذ يجمع اهواله

ومتاعه وجهاز مركبا يحمله مع ذويه الى بلاد الاندلس فراراً بنفسه .

قال رجال الكتيبة الخامسة : الاليق بكم هو ارسال ابن قرحب قربي المهدي

وتزلفا عليه يراها لكم بدأ ويعفو عما اسلفتموه من خلع طاعته ؛ فوجدوا من

الدهماء اذنا صاغية ؛ وخالف بعض رجال الشهامة هذا الراي الآفن ؛ فقامت من

اجل ذلك فتنة بين الفريقين تغلبت فيها النذالة على الرحلة ؛ فالتقى القبض على ابن

قرهب وارسل به هو وولده وقاضيه الى المهدي ؛ وطلبوا مقابل ذلك ان يرسل لهم المهدي واليا من قبله وقاضيا يحكم باسمه وهم يقومون في بلادهم باعمال الضبط والجهاد ، اى انهم طلبوا نظام « الدومينيون » او الحكم الذاتي حسب الطريقة العصرية .

في المحرم الحرام سنة ٣٠٤ (٩١٦) وصل ابن قرهب الى مدينة سوسة ووقف امام المهدي هو وولده وقاضيه ، وكان يعلم ما ينتظره في مثل ذلك الموقف ، فاستجوبه المهدي ووبخه على مخالفة الدولة ونقض عهدها ، واقدامه على قتل الحسن ابن ابي خنزير فدافع ابن قرهب عن نفسه دفاع الضعيف وقال مما قاله : لقد اولاني الناس امرهم وانا كاره ثم عزلوني وانا كاره .

راى المهدي يومئذ ان الحلم ربما اعتبر ضعفا ؛ وان زجر صقلية اصبح محتما بعدما ظهر منها ؛ فامر بابن قرهب وولده وقاضيه ان يضربوا ضربا مبرحا ؛ ثم قطعت ايديهم وارجلهم على قبر الحسن بن ابي خنزير ثم صلبوا ؛ وكانت هذه المعاملة الفظيعة التي فشا ذكرها في طول البلاد وعرضها ، انذارا رهيبا لكل من تحدته نفسه بالخروج عن الطاعة والانتفاض .

ابو سعيد الضيف موسى بن احمد

اما اهل صقلية فقد ارسل اليهم المهدي اجابة غريبة لمطالبهم : رجلا من زبانية البشر هو ابا الضيف موسى على راس اسطول قوي وجيش عتيد فنزل ارض صقلية فاتحها غازيا وراى اصحاب فتنة ابن قرهب ان النذالة لم تغن عنهم شيئا فجمعوا امرهم في بلرمة وتحصنوا بها وامتنعوا عن ابي سعيد فجاءها ووقف على جدرانها وقفة الجبار العنيد ، وحاصرها اشهرا الى ان نفذ منها الزاد والصبر فافتتحها واطلق يد جنده من قبائل كتامة فانتهكت الحرمات واستباححت المحرمات وهدمت الديار وخربت المعالم واخذ ابو سعيد خيل القوم وسلاحهم والرفيع من متاعهم ، ثم ضرب عليهم

مفرما ثقيلا فادحا ، ولم يكفه كل ذلك من اعمال الزجر والتنكيل فاخذ وجوه القوم واعيان البلاد ، وبعث بهم اسرى الى افريقيا واراد الله بهم الهلاك ففرقت مراكبهم في البحر قبل وصولها .

وساد على الجزيرة يومئذ سكون هو سكون الموت ؛ وخضع الجميع للسلطة الفاطمية خضوع من لم يبق له في فمه لسان ولا في يمينه سنان ، وسكن رجال كتامة قرى وقصور المغلوبين واصبحوا اصحاب الحول والطول في البلاد . انتهت اعمال الزجر والتنكيل وعمرت المدائن والثغور برجال الدولة الجديدة فقل الضيف (واي ضيف هو) راجعا الى القيروان بعد انجاز مهمته .

سالم بن راشد

ارسل به المهدي واليا سنة ٣٠٥ فكانت نيته متوجهة لاستئناف الجهاد وانجاز ما شرع به اسلافه من ولاية بني الاغلب من فتح جنوب ايطاليا .

الفتح في جنوب ايطاليا — كان اسطول المسلمين قد اشتد باسه وقويت

شوكته يومئذ ، وكان يقوده امير البحر ابو جعفر احمد بن عبيد ؛ فافتتح في فلورية مدينة واري Orio بعد معركة هائلة اسفرت عن مصرع ستة آلاف من النصاري واخرج من المدينة عشرة آلاف سبية ؛ واسر فيها بطريقا ؛ صالحه عن نفسه وعن مدينته بخمسة آلاف مثقال من الذهب ؛ ثم جاء قائد الاسطول بسلم للمهدي تلك الغنائم الباهرة ؛ فقال بعض رجال الحاشية : تالله ان الذي يؤدي هذا لهو الامين ! فاجاب المهدي : والله ما اعطاني من الجمل الا اذنيه !

ومن هنا ندرك ان عبيد الله المهدي كان كثير الشكوك وكان لا يستثق احداً ثم في سنة ٣١٣ ؛ وثب سالم بن راشد على مدينة طارنته الكبيرة الشهيرة فلقاه اهلهما بدفاع حار واستماتوا دون مدينتهم ، وكانت ملحمة هائلة اسفرت عن انكسارهم واحتل المسلمون المدينة وثبتوا فيها .

في سنة ٣١٥ ، استولى الاسطول على قلعة الحشب واستحوذ على ما كان فيها من خيرات وارزاق ، وسار يؤم مدينة سالرنة الشهيرة Salerne التي اصبحت من بعد ، بفضل علماء المسلمين اكبر كليات العالم القديم ، وكان فريد امير سالرنة يعلم ضعفه امام المسلمين ، ويدرك انه لا قبل له بمقاولة اسطولهم الذي ملأ البحر رعبا فاستنجد للدفاع عن مدينته برجال النرمان الذين اخذ نجمهم يتألق في البحر يومئذ .

صفحة يضاء - القاضي ميمون - خلال هذه الايام السوداء الكفرة ،

وفي وسط هذه الفتن الدهماء ؛ نرى لزاما ان نسجل صفحة طاهرة من اجل واروع صفحات القضاء الاسلامي صفحة القاضي ابي عمرو ميمون ، ترى منها ان الاضطراب ان كان شاملا كل نواحي السياسة والادارة وان البلاء ان كان مخيما على الناس من كل جهاتهم فهناك ناحية بقيت في معزل عن الفتن وهناك سلطة لم تمتد لها يد الطغيان بسوء الا وهي ناحية القضاء الاسلامي الذي بقي نزيها طاهرا نقيما ، يلتجئ اليه الناس فيجدون فيه الملجأ النقي ويحتكمون اليه فلا يجدون في انفسهم حرجا مما قضى ويسلمون تسليما .

نروى عن رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقيا ؛ انه في سنة ٣١٦ (١) ، ايام ولاية سالم بن راشد الشديدة القاسية ؛ توفي بمدينة سوسة القاضي ابو عمرو ميمون بن عمر ، وكان رجلا صالحا ذا دين وفضل مسموع عن سخون وكان معدودا في اصحابه ولي مظالم القيروان ثم ولي قضاء صقلية ؛ فلما ولي قضاءها اجتاز بسوسة ، فقال : يا اهل سوسة ، هذا كسائي وهذه فروني وهذا خرج فيه كتبي وهذه السوداء تخدمني ومعها جبة وكساء فهذا دخلت عليكم فانتظروا باي شيء ارجع .

قال ابو الريع : فاخبرني سعيد بن عثمان من اهل صقلية ، انه لما وصل اليها

(١) في كتاب العبر للذهبي انه مات سنة ٣٢٠ ، بعد ان عمر مائة عام .

قلنا له : هذه دار القضاء تنزل فيها ؟ فقال : هذه دار عظماء ، ايش اعمل فيها ؟
ونزل في دويبة لطيفة ، وكانت السوداء تغزل وتبيع غزلها وتنفق عليه من فضل
ذلك ؛ فاذا ضرب احد الباب خرجت اليه ، وقالت الساعة يخرج عليكم القاضي
الى ان اعتل ، فاقام ثلاثة ايام لم يخرج ؛ ففرع الناس الباب فخرجت لهم السوداء
وقالت ادخلوا فعودوا القاضي فانه مريض ، فدخلنا عليه فاصبنا وسادتين محشوتين
تبناً عند راسه وحصيرة بردى تحته ؛ فلما رأنا بكى ، وقال والله انني اجتهدت ما
استطعت ، ثم خرج من صقلية وهو مريض وقال لاهلها : خلف الله لكم بعدى
بخير ، فقالوا صحبك الله بالعافية ؛ فوصل الى سوسة فقال يا اهل سوسة : كما
دخلنا عليكم رجعنا اليكم ، هذه كسائي وجبتي وخرجي فيه كتي وهذه السوداء
تخدمني . » (١)

قال محمد بن الحارث بن اسد الحشني في طبقات علماء افريقيا : ادرى

(١) بمناسبة ذكرنا للقضاة والقضاء الاسلامي نذكر طريقة القضاء في ذلك

العصر ببلاد المسيحية :

كانت العدالة تعتمد يومئذ على احدى طريقتين : الاولى هي المعروفة باسم
« حكم الله » وذلك بان يحمل المتهم بين يديه قطعة من الحديد المحمر بالنار ويسير
بها بعض خطوات ثم يلتقي بها الى الارض ؛ فان خلفت النار آثارها بيديه بعد ثلاثة
ايام كان مجرماً واستوجب القصاص وصارم العقاب ؛ وان خلت يده من آثار
النار بعد ثلاثة ايام اعتبر بريئاً واطلق سبيله .

اما الطريقة الثانية فهي المبارزة العدلية ؛ وذلك بان يلتقي المدعى والمدعى عليه ،
وفي يد كل منهما سيف ويتبارزان ؛ فغالبا في المعركة هو صاحب الحق والمغلوب
هو الظالم المعتدي ؛ وان كان المدعي او المدعى عليه او كلاهما غير قادر على استعمال
السلاح فله ان يكلف وكيلا للدفاع عنه بواسطة السيف .

مقعداً شيخاً كبيراً ، وكان له دين ومكان على سنه ، عهدي به سنة ٣٠٣ ، وأنا
اقراً عليه موطأ مالك فقرأت عليه فيه كلاماً لعمر بن الخطاب فجعل يبكي خشية
وتواضعاً ، فأتى في ذلك المجلس بين يديه حتى دخل عليه داخل ، فقال : فتحت
صقلية . فجعل يتأسف . »

والمقصود هنا بفتح صقلية ؛ هو دخولها تحت طاعة الدولة الفاطمية .
مبدأ ظهور النرمان — رأينا في مقدمة هذا الكتاب التاريخية من هم النرمان ،
وكيف انتشروا في شرق اوروبا وفي غربها ، ونفتح هنا باب البحث عن تدخلهم
في امر صقلية ، ذلك التدخل الذي ابتداء امره عند انهيار الدولة الاغلبية وانتهى
بزوال السلطة الاسلامية عن الجزيرة .

في سنة ٣٠٠ ، وفي الايام الاولى من ولاية ابن قريهب كان جماعة من
النرمان يرجعون لوطنهم نرمنديا من زيارة القدس الشريف واذ كانوا على مقربة
من صقلية استنجد بهم البعض من النصارى هنالك ضد المسلمين ، وكانوا في حرب
فانجدوهم ونصروهم على عدوهم .

واذ رأى نصارى صقلية ان امبراطور الروم قد تغافل عنهم ، وان نجداته المتوالية
لم تكن بذات اثر فعال ، طلبوا الى رجال النرمان البقاء عندهم ، والانيات بقومهم
اليهم حتى ينتصر المسيحيون هنالك نصراً نهائياً على المسلمين .

اعتذر يومئذ رجال النرمان عن البقاء ، انما وعدوا بارسال جماعة اخرى من
قومهم ، اشد مراسا منهم واقدر على النضال والقتال ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون
اليها ما انتجته المدينة الاسلامية في صقلية ، من نفائس المنسوجات الحريرية ، ومن
سكر وبرتقال وثمار شهية كانت مجهولة كلها يومئذ في اوروبا ورغبوا شبانهم في ارتياد
تلك الناحية طلباً للثروة ، تحت ستار الدفاع عن حرية المسيحية ، والجهاد ضد المسلمين
فكان يرتال صقلية مذكياً لنهم النرمان كما كان تين قرطاجنة مذكياً لنهم الرومان

عندما اخرج قاطون من كمة حبات من التين وخاطب المجلس قائلاً : ان ارضائتبت
مثل هذه الثمرات يجب ان تكون لنا .

من ذلك الحين اخذ قرصان النرمان يجوبون تلك البحار ويترصدون الفرص
التي تمكنهم من قهويض سلطان المسلمين .

استمرار الفتح في جنوب ايطاليا — وفي سنة ٣١٧ كانت عمارة اسلامية مؤلفة

من اربع سفن ترناد البحر فاقبت اسطولا طليانيا مؤلفا من سبع سفن ؛ فدهام
الاسطول الاسلامي اسطول الطليان ودحره وكانت نتيجة هذا الانتصار البحري
ان استولى المسلمون على مدينة طرمولى Termoli ومن اغرب غزوات هذا العهد
غزوة القائد يعقوب ابن اسحاق ، فقد سار على راس اسطول ضخم من اساطيل
المسلمين ، قاصداً شمال ايطاليا ، فاصطف امام مدينة جنوة Gène درة ايطاليا اللامعة
ومرساها الذى سارت بذكره الركبان ؛ ونازلها قانس منها ضعفا ، فانزل جنده
وبحارته وصادمها صدمة عنيفة مكنته من اكتافها ، فاحتلها ونصب فوق جدرانها
راية المسلمين الظافرة الى حين .

الثورة — لم تكن هذه الحروب الخارجية ، وما كلل الظفر به هامتها من

فخار ، لتشغل سالم بسن راشد عن الحذر والانتباه ، خشية انتقاض اهل صقلية
الذين الفوا الثورة ، وسكنت قلوبهم الاحقاد والضغائن ، اثر اعمال الزجر والتنكيل
التي قام بها سلفه ، تجماعهم يندفعون في ذلك السبيل لاذنى مناسبة .

ولو ان سالما والذين ارسلوا به واليا من قبلهم ، راوا ان يسلكوا يؤمئذ سياسة
اللين والمجاملة ، وجبر القلوب المنكسرة ، واسدال ستار النسيان عن الماضى القريب
لكان ذلك اوفق لهم واهدى سبيلا .

لكنهم رأوا عن قصر نظر ، وسيراً من اهواء النفس واندفاعا مع نغمة
عنصرية مفعونة زادها الانتصار بطراً ان يمعنوا في سياسة العنف والشدة وان

برهقوا الناس الى اقصى درجة الارهاق قتلا لروح التمرد فيهم وقضاء على ما في نفوسهم من طموح .

وما رأينا في التاريخ ان سياسة مثل هذه السياسة انتجت غير الذورة والدماء والخراب والدمار ، وما انتج الضغط كما يقولون الا الانفجار .

ان كانت بالارمة وضاحتها قد نالها من اعمال الزجر والتنكيل ما اخمد انفاسها الى حين ، فان جهات اخرى من البلاد كانت لا تزال محافظة على قوتها الروحية تآبي الضيم ، وتستنكف عن الخضوع للطغاة الجبارين ، فانتفضت ناحية جرجنتي انتقاضاً جعل سالما بن راشد يعجز عن اخماده فارسل الى المهدي يستنجد الامير ابا القاسم بن عبيد الله المهدي ويهول له امر الثورة ، ويزين له طريقة اخمادها بين الحديد والنار واسقاط كل راس تحاول الارتفاع ، فافتتم الخليفة الفاطمي وارسل على صقلية جنداً جديداً ، سنة ٣٢٥ (١)

خليل ابن اسحاق

ولم يكن الجند الذي ارسله الخليفة على صقلية هو وسيلة الزجر والتنكيل ، بل كانت الوسيلة الحقيقية للبطش والارهاب ، متعمدة شخص الوالى الجديد الجبار المنيد خليل بن اسحاق الطاغية ، اوحجاج المغرب وصقلية ، انما ليس له من الحجاج بن يوسف الاجر أنه على سفك الدماء والبطش على السواء بالمجرمين

(١) في سنة ٣٢٣ ، تولى حكم مصر من قبل بنى العباس محمد بن طفج الفرغانى التركي الملقب بالاخشيد ؛ فاعلن استقلاله كما فعل من قبل ابن طولون وتولاها آله من بعده ، ثم تولاها بعدهم الاسود كافور الاخشيدى ؛ الذى خلد اسمه ابو الطيب المتنبى ؛ بما قاله فيه من مدائح رفعت الى السماء الاعزل ، ومن مهاجي نزلت به اسفل الحضيض ؛ وانتهى امر هذه الدويلة التي ملها الناس على يد جوهر الصقلي ؛ قائد الفاطميين الذى احتل مصر وضمها للقبروان .

والأبرياء وليس له علمه وذكاؤه وفصاحته .

ان كان سالم بن راشد شديداً في سياسته ، فانه لم يكن يصل بتلك الشدة الى درجة الفظاعة ، ولم يكن يريد سفك الدماء الا دماء الذين يعتقد فيهم النزوع للفتنة او يرى في القضاء عليهم قضاء على الثورة والعصيان ؛ فما كادت تستقر اقدام النعمة التي تسمى بخليل بن اسحاق في ارض صقلية حتى ادرك سالم بن راشد فداحة الخطب وامتداد الكارثة التي كان بنفسه سببها ؛ فاعلن مع جماعة كبيرة من القوم انه لا يشارك الوالي الجديد في اعماله ، وانتحى جانباً معلناً بنفسه الثورة التي كان استمد الخليفة لاطفاء نيرانها .

ابتدأ خليل ابن اسحاق امره باختطاط قرية في ضواحي بالرمة ، حصنها وشاد فيها القصور وديار الجند واسماها « الخالصة » واتخذها مسكناً له ولخاصته ووجوه جنده تحميمهم عند الحاجة من ثورة السكان ، واخذ لعنه الله وسود اسمه في التاريخ الى الابد بمعن في الظلم ، ويبلغ في الجور والافحاش درجة لم يسمع مثلاً من قبل ولا من بعد ، ولم تكن نتيجة لهذه الفظاعة ازهاق النفوس ولا موت الناس جوعاً فحسب ، بل انها جعلت الناس وقد رأوا مدى الكارثة التي اصابوا بها في اموالهم واعراضهم ونفوسهم يفرون من صقلية ومن جنوب ايطاليا ، ويدخلون ارض النصرانية ويعتقون هنالك الديانة المسيحية ولو بصفة صورية .

ولقد قضى هذا الفاجر اربعة اعوام في صقلية يقتل وينهب وينتهك الحرمات ويجمع ويظلم ، وكان اثناء ذلك يوالى حصار جرجنتي التي استعصت عليه ، اذ علم اهلهما ما لهم ان هم استسلموا ؛ ودام الحصار اربعة اعوام كاملة ؛ الى ان ضاق عليها الخناق فاحتلها ونكل بها تنكيلاً لا يوصف ، ثم اراد العودة الى افريقيا وقد اعتقد انه انجز مهمته اللعينة فحمل معه جماعة كثيرة من وجوه الجزيرة وكبرائها وعلماؤها زعم انه يريد ان يقدمهم للخليفة بالمهدية ، وامر في عرض البحر فتثبت المراكب

التي كانت تحملهم ، وهناك بين امواج البحر المتوسط الذي جاهدوا وجاهد اجدادهم في سبيل سيادته قضاوا نحبهم شهداء الجور والفظاعة والنقمة العنصرية ولقد حضر هذا اللعين خليل بن اسحاق مجلس الخليفة في المهديّة فكان يفاخر الناس بشروره وآثامه وفضائله ، ومما قاله تقربا الى الخليفة كانه فعل ذلك في سبيل دعوته ونوطيد سلطانه : « اتنى قتلت في امارتى الف الف نسمة » . فاجابه احد علماء الدولة الشيعية « ابو عبد الله المؤدب » لك يا ابا العباس في قتل نفس واحدة ما يكفيك .

الروم والترمان — في هاتيك الاثناء ، والمسلمون يقاسون محنة لم يسبق لها مثيل ، وسيوف بعضهم تمز في رقاب البعض الآخر ، كان المسيحيون عامة ينظرون هذه الحوادث الرهيبة بعين الجذل والسرور والامل ، فكان الروم يعدون العدة لمهاجمة الجزيرة بقوة وارجاعها لسلطان القسطنطينية ؛ وكان المدد من ناحيتهم يترى للنصارى الذين بقيت لهم في صقلية بقية ، وكان رجال الترممان من جهة اخرى ، يقدون زرافات في مراكبهم الخفيفة فينقضون على المسلمين في جهة بعد جهة ويغنون منهم السبايا والاسلاب ويعودون لبلادهم .

وأخيراً ما كادت تنتهي أيام خليل بن اسحاق اللعينة ، حتى تركت في صقلية جرثومة الداء الذي سيقضى عليها بعد حين : ذلك أن جماعة قوية من الترممان نزلوا سنة (٣٢٧) ناحية من صقلية ، وتحصنوا فيها ، وجعلوها مركزاً منيعاً اما يقومون به من قرصنة في البحر ، ومن غزوات وانتهاب في البر ، وهكذا بينما كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا ، كان النصارى يقاتلونهم جميعا ومن كل جهة .

ولقد كانت الترممان في اول عهدهم بالغزو في صقلية كما قال عنهم العلامة غوستاف لوبون : يشتغلون بنهب الطليان واليونان والعرب على السواء بهمة ونشاط دونهما همهم ونشاطهم في الدفاع عن الدين (المسيحي) .

عطاف الازدي

ارسل به المنصور واليا على صقلية ، لكي يستمر على سياسة اسلافه الذين سبقوه بشر في تلك الولاية منذ تمهد الامر لدولة الفاطميين واستولى رجال كتامة بغلظتهم على زمام الملك .

وكانت صقلية يومئذ تسبح في بحر من الدماء ؛ فان كان رجال الفاطميين رأوا ان لا سياسة لهم هنالك الا سفك الدماء والامعان في الظلم والزجر والارهاب اقتلاعاً لجذور الثورة وخنقا لكل فتنة مقبلة في مهدها ؛ فان البقية الباقية من رجال صقلية الاولين رأوا ان الشدة لا تقابل الا بالشدة والشر لا يمنع الا بالشر والدم لا يفصل الا بالدم ، فكانت ثوراتهم تتوالى بعد سكون قليل اثر عمليات الارهاب السالفة ؛ وكان الروم كما رأينا قد استضعفوا المسلمين في هذه الايام السوداء وتكالبوا عليهم وامتنعوا عن دفع مال الجزية الذي تجمع بدمتهم واخذوا يستعدون للملحمة الكبرى ، والنرمان من جهتهم كانوا يحصنون مركزهم الذي استولوا عليه بسبب الثورة والقلق بين المسلمين ، ويستعدون كذلك للملحمة الكبرى واستخلاص صقلية لحسابهم الخاص ، بينما كان الروم يريدون استرجاعها تحت سلطانهم .

لم تكن ايام عطاف الازدي طويلة بصقلية ولم يستطع ان يعمرها على قصرها بعمل يذكر ، وكان اهل بالرمة قد ارادوا التخلص نهائيا من هذه المظالم والشرور والآثام ، فتآلفوا وتحالفوا حول عصابة بنى الطبرى وثاروا بعطاف يوم عيد الفطر سنة ٣٣٥ ، فالتجأ الى قلعة الخااصة وامتنع فيها ؛ ثم سار وفد منهم الى المهديّة يفاوض المنصور في شأن صقلية وقرار الحكم فيها على اسس متينة من العدل الاسلامي والتساوي بين الجميع ، وحرية المعتقد والمعاملات ؛ واوصى الوفد رجال بالرمة ان لا يقبلوا اي عامل يفد عليهم من المهديّة الا بعد انتهاء المذاكرات وورود رسائل منه تشعرهم بذلك .

لكن ازمة صقلية كانت قد انتهت الى حين ؛ وادرك المنصور بالله اسماعيل ابن القاسم بن عبيد الله خليفة للهدية ان تلك السياسة التي سلكها اسلافه لم تات الا بعكس النتيجة المطلوبة ؛ وان قطراً اسلامياً هو طليعة المسلمين نحو الارض الاروية بوشك ان يسقط برمته تحت قبضة النصارى بسبب تلك الشدة وذلك الارهاب ؛ فقبل ان يصل الى المنصور وفد صقلية ، وعندما بلغه نبأ ثورة بالرم على عطف الازدي ، بادر بتعيين فاضل من فضلاء الامة ووجيها من وجوه الدولة ، هو الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي والياً على صقلية وممثلاً للدولة فيها ؛ على ان يسلك هنالك سياسة جمع الشمل واتفاق الكلمة والاستعداد لمقارعة النصارى الذين كانت دعوة الحرب الصليبية ضد الاسلام والمسلمين تلهب قلوبهم وتنفذ في افئدتهم ناراً .

وصل الحسن صقلية مفتتحاً بها عصرأ جديداً كان عصر ازدهار وجهاد وصراع سنة ٣٣٦ (٩٤٨) وانتهى بذلك عصر الشرور والآثام والمصائب والفتن والتنكيل والارهاب ؛ الذي دامت مدته نحواً من ٥٠ سنة ، تتخللها لا محالة فترات راحة نسبية ؛ وكانت هذه الفترة التعسة في تاريخ صقلية من اكبر اسباب انهيار ملك المسلمين فيها وتقلب النصارى فيما بعد عليها ؛ وذلك لان المسلمين قد استنزفوا كل قواهم في تلك الثورات المتوالية ولان اعمال الزجر والتنكيل قد ذهبت باحسن القوم وازدادت اكثرهم قوة واشدهم نفوذاً ؛ ولان الخلاف اللعين بين المسلمين : بين سنة وشيعة وبين عرب وبربر قد توطن في النفوس وتوطد بكيفية لم تستطع صقلية التخلص منها فيما بعد الا بصفة سطحية ؛ ولان المسلمين خلال تلك السنين النحسة قد تركوا امر النصارى وامر الجهاد فتمكن هؤلاء تمكناً جعلهم يعيدون الكرة على المسلمين ؛ فان باء الروم بالاندحار فقد نال النرمان آخر الامر كل الفوز والانتصار .